الإصلاح السياسي الإسلامي
من الأفغاني إلى رشيد رضا

أحمد على سالم*

مقدمة

ثلاثة شخصيات مسلمة كبرى كان لها أكبر الأثر في حركة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا. فقد مثلت حركتهم رد فعل متوازن للتحدي المزدوج الذي كان على العالم الإسلامي أن يواجهه منذ القرن التاسع عشر، ألا وهو تدهور المجتمعات والدول الإسلامية - بل والحضارة الإسلامية كلها - من جانب والهيمنة - العسكرية والتكنولوجية المتزايدة للغرب على العالم الإسلامي من جانب آخر. فبينما دعا بعض المصلحين المسلمين - مثل دعاة الحركة الوهابية في الجزيرة العربية ودعاة الحركة المهدية في السودان - إلى إصلاح يستند فقط على الوحي الإسلامي بشقيه القرآن والسنة وبعض التقاليد الإسلامية، نادى آخرون من دعاة الإصلاح - مثل زعماء حركة التنظيمات في الدولة العثمانية - إلى إصلاح يستند على القيم الغربية فقط. أما الجماعة التي تزعمها الأفغاني وعبده ورضا فقد نادت بإصلاح يقوم على كل من الوحي الإسلامي وبعض ما أنتجته الحضارة الغربية.[1]

ولقد اختلف أفراد هذه الجماعة حول المحتوى الدقيق لهذا المزيج. فبينما أعتبر بعضهم أن أقصى ما يمكن أن يقدمه الغرب للعالم الإسلامي هو ما توصل إليه من تكنولوجيا

---

* ماجستير في العلوم السياسية والدراسات الإسلامية من جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية في فيرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية. طالب دكتوراه في العلوم السياسية في جامعة إلينوي.

1 لمزيد من التفاصيل حول الحركتين الوهابية والمهدية وحركة التنظيمات العثمانية انظر:
Esposito, John L. (ed.). *The Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World* (New York and Oxford: Oxford University Press, 1995) vol. 3, pp. 20-22; vol. 4, pp. 183-186, 307-308.

متطورة، تبنى آخرون بعض القيم الغربية وسطاً إذ كالحرية والإخاء والمساواة. ومع ذلك فإن هدفهم النهائي المشترك كان نـــهضة الأمة المسلمة بإتباع الوحي الإسلامي والاستفادة من منجزات الحضارات الأخرى، وعلى الأخص الحضارة الغربية. لقد جمع هذا الهدف بين الأفغاني وعبده، إلا أنـــهما اختلفا حول الأولويات والمناهج الأولى بالإتباع في حركة الإصلاح. بعبارة أخرى، اختلف الأفغاني وعبده حول الأهداف والوسائل المرحلية المناسبة للإصلاح. فرغم أن محمد عبده كان يوماً ما من أقرب تلاميذ الأفغاني إليه، إلا أن رؤيته الخاصة للإصلاح اختلفت عن رؤية الأفغاني. فبينما جاهد الأفغاني من أجل الإصلاح السياسي بالدرجة الأولى، ناضل عبده من أجل الإصلاح الديني والتعليمي مقلّلاً من أهمية السياسة في العمل الإصلاحي في العالم الإسلامي.

و يُعرَّف الشيخ محمد رشيد رضا عادة بأنه تلميذ مخلص لمحمد عبده، وقد كان كذلك بالفعل. إلا أن ذلك ليس كل الحقيقة، فقد كان لرضا رؤيته و إسهاماته الإصلاحية الخاصة. كما كان أيضاً مجاهداً لتحقيق المشروع السياسي الإصلاحي الذي وضعه الأفغاني من قبل، رغم أنه لم يفعل ذلك عن قصد في بعض الأحيان. وبينما ينظر إلى رضا بعين الإجلال و الإكبار للدور الذي قام به في نشر و إثراء تعاليم عبده في الإصلاح الديني والتعليمي وإثرائها، فإنه نادراً ما يُحمَد على مشروعه السياسي الذي استوحاه من الأفغاني ثم طوره و جاهد في سبيل تحقيقه. و بناء على ذلك، فإن هذه الورقة تـــهدف إلى بيان الأثر الكبير لمشروع الأفغاني للإصلاح السياسي على الفكر والحركة السياسية الإصلاحية للشيخ رشيد رضا. ولعل من أبرز مظاهر تأثير الأفغاني في آراء رشيد رضا السياسية واتساق جهودهما في سبيل الإصلاح السياسي هو تبني رشيد رضا لفكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها الأفغاني. ومع ذلك فبينما كانت هذه الفكرة ذروة المشروع السياسي عند الأفغاني، فإنـــها مثّلت مرحلة وسطى في المشروع الإصلاحي السياسي عند رشيد رضا. وبينما كانت فكرة الجامعة الإسلامية عند الأفغاني أكثر شمولاً من حيث الهدف والمضمون، فإن فكرة رشيد رضا حول الجامعة الإسلامية كانت أكثر واقعية وقابلية للتطبيق بالنظر إلى ظروف العالم الإسلامي في عصره.

أولاً: الإصلاح السياسي عند الأفغاني من الدولة الإسلامية النموذجية إلى معاداة الاستعمار والدعوة إلى الجامعة الإسلامية

رغم ما للأفغاني من إسهامات إصلاحية في مجالات العقيدة والفلسفة،[2] إلا إنه كَرَّس معظم حياته للإصلاح السياسي في العالم الإسلامي، وكانت دعوة الجامعة الإسلامية جانباً من ذلك الإصلاح. و رغم صعوبة تحديد أول من أطلق هذه الدعوة، إلا أننا لا نشك أن الأفغاني كان أول مفكر وسياسي مسلم يطور مشروعاً متماسكاً لإنجاز هذه الفكرة و يدعو لها متحمساً سواء لدى الزعماء المسلمين أو الجماهير المسلمة. ولذلك فإن فكرة الجامعة الإسلامية عادة ما تنسب إلى جمال الدين الأفغاني. وفي الواقع فإن الأفغاني لم يدع إلى الجامعة الإسلامية في بداية حركته الإصلاحية السياسية، و إنما دعا إليها في مرحلة لاحقة من تلك الحركة. ولذلك يمكن التمييز بين مرحلتين في تلك الحركة سنتناولهما تباعاً.

1. نحو بناء دولة إسلامية نموذجية: محاربة الاستبداد والهزيمة وأمام الاستعمار الغربي

كان أول ما دعا إليه الأفغاني من مشروعه الإصلاحي السياسي وعمل من أجله هو إقامة دولة إسلامية نموذجية في بلد إسلامي مُهيَّأ لذلك.[3] والدولة الإسلامية النموذجية عند الأفغاني هي دولة مستقلة تلتزم بالقرآن والسنة والشورى والمبادئ الدستورية.[4] وقد وقع اختيار الأفغاني على مصر في سبعينات القرن التاسع عشر لكي تكون هدف مشروعه الإصلاحي السياسي، فطالما اعتبر الأفغاني مصر أصلح الدول الإسلامية لهذا الغرض.[5] وفي مصر واجه الأفغاني النظام المستبد للخديوي إسماعيل و اعتبره العقبة الرئيسة أمام الإصلاح السياسي و إقامة الدولة الإسلامية النموذجية، كما اعتبر جهل المصريين و غياب وعيهم

---

2 انظر على سبيل المثال تعليقاته على شرح الدواني للعقائد العضدية في: جمال الدين الأفغاني، **الأعمال الكاملة**، تقديم وتحقيق محمد عمارة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979) الجزء الأول، ص 211-432. كما كتب الأفغاني رسالة بالفارسية بعنوان "في الرد على الدهريين".

3 عمارة، محمد. **جمال الدين الأفغاني: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام** (بيروت: دار الشروق، الطبعة الثانية، 1988) ص 26.

4 المرجع السابق، ص 232-239.

5 الأفغاني، جمال الدين. مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 19-20.

السياسي من أهم عوامل ازدهار ذلك النظام الاستبدادي الحاكم.[6] ولذلك جعل الأفغاني هدف حركته الإصلاحية الأساس هو التخلص من الحكم التسلطي للخديوي إسماعيل، وذلك بالاعتماد أساساً على الشعب المصري وليس الفئة الحاكمة الدخيلة عليه. كما جعل منهجه الرئيس لتحقيق ذلك الهدف هو توعية الجماهير بفساد النظام الحاكم وذلك بتقويمه بالمعايير الإسلامية والغربية الحديثة. وقد برع الأفغاني في استخدام مهاراته التنظيمية العالية و قدراته الفائقة على مخاطبة وتعبئة الجماهير وتعبئتهم وذلك من أجل بناء قاعدة شعبية عريضة مطالبة بالإصلاح.

خاطب الأفغاني فئات ذات خلفيات ثقافية واجتماعية وتعليمية ومهنية مختلفة. فقد خاطب العوام وحثهم على الثورة ضد الحكومة التسلطية.[7] كما حصل على دعم قطاع مهم من الطبقة الوسطى الناشئة آنذاك، إذ أبدى ولي العهد الأمير توفيق قناعة بآرائه الإصلاحية السياسية.[8] وكانت أفكار الأفغاني حول الإصلاح السياسي مقنعة أيضاً للأفندية ذوي الخلفيات التعليمية الغربية العصرية والمشايخ ذوي الخلفيات التعليمية التقليدية. و نجح الأفغاني أيضاً في تجنيد بعض كبار ضباط الجيش قادوا الثورة العرابية فيما بعد.[9] والتحق الأفغاني لفترة قصيرة بالمحفل الماسوني الشرقي وذلك للدعوة إلى أفكاره الإصلاحية بين الأجانب و المنبهرين بالغرب.[10] وتتويجاً لتلك الجهود أسس الأفغاني منظمة سياسية سرية هي الحزب الوطني الحر. وقد لعب هذا الحزب دوراً مهماً في الإطاحة بالخديوي إسماعيل عام 1879.[11]

هذا و لم تكن الوسائل التي تبناها الأفغاني لتحقيق أهدافه الإصلاحية السياسية كلها سلمية. فحين بدت حركته قوية مال الأفغاني إلى قبول بعض الوسائل العنيفة لإحداث

---

6 عمارة، محمد. مرجع سابق، ص 27-28، 230-232.
7 المرجع السابق، ص 60-61.
8 المرجع السابق، ص 61-62.
9 المرجع السابق، ص 59-60، 244-245.
10 المرجع السابق، ص 57-59.
11 المرجع السابق، ص 62.

تغيير جذري في النظام السياسي، وذلك باغتيال الخديوي إسماعيل والإطاحة بالنظام الملكي وإقامة نظام جمهوري إسلامي لأول مرة في مصر.[12] ولذلك يعتبر الأفغاني مصلحاً ثورياً.

إلا أن الأفغاني لم يحقق هدفه الإصلاحي السياسي، إذ سرعان ما انقلب عليه الأمير توفيق بعد أن أصبح خديوي مصر. فقد اعتبر الخديوي نجاح الأفغاني خطراً على حكمه، ولذلك قرر طرده من البلاد. وبالفعل فقد خرج الأفغاني من مصر منفياً إلى الهند التي كانت آنذاك مستعمرة بريطانية، حيث خضع للإقامة الجبرية وانقطعت صلته بالعالم الخارجي. إلا أن أتباعه في مصر سعوا إلى إنجاز مهمته الإصلاحية السياسية. ففي عام 1881 قاد مجموعة من الضباط المصريين بزعامة أحمد عرابي عصياناً عسكرياً سرعان ما تحول إلى ثورة أيّدتـــها الجماهير والطبقة الوسطى والأفندية والمشايخ. ونجحت الثورة في تحقيق الهدف السياسي الرئيس للأفغاني، ألا وهو إقامة نظام ملكي دستوري يخضع لمراقبة مجلس نيابي منتخب شعبياً. ولكن الثورة ونظامها السياسي الوليد أُجهضا على يد القوات البريطانية التي غزت مصر عام 1882 باسم الدفاع عن الخديوي والأجانب.

2. نحو جامعة إسلامية: محاربة الاستعمار والهزيمة أمام النظم الاستبدادية

كان الاستعمار البريطاني لمصر نقطة تحول في فكر الأفغاني وحياته، ليس فقط لأن السلطات الاستعمارية البريطانية في الهند أطلقت سراحه وسمحت له بالسفر إلى أوروبا بعد أن ثبت الاستعمار البريطاني أقدامه في مصر، وإنما أيضاً لأن الأفغاني أعاد النظر في أفكاره الإصلاحية السياسية بما فيها آراؤه حول معوقات الإصلاح السياسي في العالم الإسلامي وأهداف تحقيق ذلك الإصلاح ووسائله. فلم تعد النظم الاستبدادية في الدول الإسلامية بالنسبة للأفغاني هي العقبة الكبرى الوحيدة أمام الإصلاح السياسي، وإنما أصبح الاستعمار الغربي عقبة كبرى أخرى بل أشدُّ خطورة من النظم الاستبدادية.[13] وبينما اعتبر الأفغاني جهل المسلمين وغياب وعيهم السياسي أهم عوامل ازدهار النظم الاستبدادية، فإنه اعتبر

---

12 المرجع السابق، ص 240-242.

13 حول رأي الأفغاني في الاستعمار انظر: جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 71-79.

انقسامات المسلمين وتمزق وحدتهم السياسية أهم العوامل التي مهدت الطريق لاستعمار العالم الإسلامي.[14]

ولذلك عمل الأفغاني على تحقيق ثلاثة أهداف في الوقت نفسه. فأولاً استمر الأفغاني في تشجيع محاولات بناء دول إسلامية نموذجية في كبرى الدول الإسلامية التي لم تكن قد خضعت بعد للاستعمار في ذلك الوقت. وثانياً أثار الأفغاني المسلمين ضد الاستعمار الغربي، ولاسيما البريطاني. وثالثاً دعا الأفغاني الدول الإسلامية المستقلة آنذاك، وهي الدولة العثمانية وإيران وأفغانستان إلى الاتحاد لحفظ استقلالهم والمساعدة في تحرير البلاد الإسلامية المستعمرة.[15] وقد تطورت هذه الدعوة لاحقاً لتصبح فكرة الجامعة الإسلامية.

سعى الأفغاني بدعوته إلى الجامعة الإسلامية إلى معالجة ثلاثة انقسامات رئيسة بين المسلمين. فقد سعى أولاً إلى ردم الهوة التي تفصل بين المسلمين السنة وإخوانهم المسلمين الشيعة. إذ اعتبر الأفغاني أن الاختلاف بين التيار السني الرئيس ونظيره الشيعي اختلافاً هامشياً، وأن هذا الانقسام لا يفيد أيّاً من الطائفتين ولا يخدم إلا مصالح الحكام المستبدين الذين سعوا تاريخياً للتهويل من ذلك الانقسام لاستغلاله في تعزيز حكمهم الاستبدادي. كما انتقد الأفغاني المواقف العدائية التي يتخذها المتطرفون من كلا الطائفتين من بعضهم بعضا. وأدان الأفغاني الاتجاه السائد بين المسلمين نحو التقليد الأعمى لأئمة المذاهب، فقد رفض أن يلزم نفسه بمذهب أو إمام بعينه، مؤكداً على أنه مسلم بلا مذهب وعالم له اجتهاده الخاص في الإسلام. ولعل ذلك الموقف من أسباب عدم يقيننا مما إذا كان الأفغاني في الأصل سنياً أم شيعياً. ولاشك أيضاً أن ذلك الموقف قد ساعد الأفغاني على التعامل بكفاءة مع كل من السنة والشيعة.[16]

وسعى الأفغاني ثانياً بدعوته إلى الجامعة الإسلامية إلى ردم الهوة بين الجماعات القومية المسلمة المختلفة. فقد أدان الأفغاني الأيديولوجية القومية الصاعدة آنذاك، وذلك انطلاقاً من منظور إسلامي يؤكد على أن الإسلام هو الجنسية الوحيدة للمسلمين، وأن المسلمين

---

14 المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 25-33.

15 المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 16-19، 256-271.

16 عمارة محمد، مرجع سابق، ص 37-44.

لم يعرفوا في تاريخهم جنسية سوى دينهم، فكان العربي يخضع لسلطة التركي، والفارسي يذعن لسلطة العربي، والهندي يخضع لحكم الأفغاني، طالما التزم الحكام بالتعاليم الإسلامية. ومن هذا المنطلق دعا الأفغاني جميع المسلمين لتأسيس جامعة إسلامية الأساس والوجهة.[17]

ومن جانب آخر هاجم الأفغاني السياسة العثمانية الرسمية التي تقضي بتتريك جميع الشعوب العثمانية غير التركية. بل ودعا جميع المسلمين - ولاسيما العثمانيون منهم - إلى استخدام لغة واحدة هي اللغة العربية. وقد عزا الأفغاني هذه الفكرة إلى السلطانين العثمانيين محمد الفاتح وسليم الأول رغم فشلهما في تحقيقها. ويجب ملاحظة أن دافع الأفغاني الوحيد وراء تشجيع استخدام اللغة العربية هو علاقتها الفريدة بالإسلام.[18] فالأفغاني الذي انتقد القومية لم ينطلق من منظور قومي عربي.

وثالثاً فإن دعوة الأفغاني إلى الجامعة الإسلامية هدفت إلى ردم الهوة السياسية بين الدول الإسلامية المستقلة. ولكنه كان واقعياً بدرجة كافية للتحقق من الصعوبة البالغة لإخضاع جميع الدول الإسلامية لحكومة واحدة وحاكم واحد. ولذلك قدَّم الأفغاني بديلين خلاقين لتوحيد الدول الإسلامية المستقلة. فقد اقترح أولاً إقامة نوع من الاتحاد الفيدرالي أو الكومنولث تتمتع الدول المنضمة إليه بالاستقلال في إدارة شئونها الداخلية.[19] وقد جذبت فكرة الدولة الإسلامية الفيدرالية كوسيلة لإقامة جامعة إسلامية عدداً من دعاة الإصلاح الإسلامي فيما بعد، ومن بينهم عبد الرحمن الكواكبي[20] ورشيد رضا كما سنرى لاحقاً. أما اقتراح الأفغاني الثاني لإقامة جامعة إسلامية فهو أن تلتزم جميع الدول الإسلامية القيم والشريعة المستمدة من القرآن والسنة.[21] ويشير هذا الاقتراح إلى أن وحدة المسلمين كانت أولى عند الأفغاني من وجود خلافة إسلامية قوية.

---

17 الأفغاني، جمال الدين. مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 30-39.

18 المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 13-16.

19 المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 16-19.

20 انظر على سبيل المثال كتاب الكواكبي "أم القرى" في: عبد الرحمن الكواكبي، **الأعمال الكاملة**، تقديم وتحقيق محمد جمال الطحان (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1995) ص 274-411.

21 الأفغاني، جمال الدين. مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 25-29.

أهداف متناقضة أم وسائل متعارضة؟

لعل أوضح مثال على سعي الأفغاني لتحقيق أهدافه الإصلاحية الثلاثة معاً هو المنظمة السرية التي أنشأها في باريس وأطلق عليها "تنظيم العروة الوثقى"، وكذلك المجلة التي أصدرتـــها المنظمة وحملت اسمها. إذ تشير المعلومات القليلة المتاحة لدينا عن ذلك التنظيم أن هدفه الرئيس كان إثارة المسلمين وتحريضهم على الثورة ضد الحكم الاستعماري لبلادهم. وقد تشكل التنظيم من خلايا سرية كانت تعمل أساساً في مصر والهند.[22] وفي عام 1884 أصدرت قيادة التنظيم من مقره في باريس مجلة "العروة الوثقى". ورغم أن المجلة لم تستمر سوى بضعة أشهر، فإنـــها كانت واسعة الانتشار والتأثير في العالم الإسلامي ولاسيما في مصر والهند.

"كانت المجلة تدعو إلى الوحدة الإسلامية وتحث المسلمين في كل أصقاع الأرض على الوحدة واستعادة أمجاد الإسلام الضائعة. وقد هدفت على نحو خاص إلى تحرير مصر من الاحتلال البريطاني عن طريق إثارة الرأي العام في مصر والهند. ويمكن تلخيص الأفكار التي عرضتها المجلة في فكرتين رئيسيتين. الأولى هي أن الإسلام الصحيح قد أفسده الجهل ومن ثم يجب إصلاح المسلمين وإلا فسيواجهون انـــهياراً تاماً. والثانية هي أن حكام المسلمين قد خانوا شعوبـــهم واتبعوا أهواءهم وما تمليه عليهم دوافعهم الشخصية من الجشع والتكبر في الأرض، فجعلوا بلادهم مرتعاً خصباً للأجانب. وكانت عاقبة ذلك أن تداعى الأوروبيون على بلاد المسلمين منتهزين فرصة عدم التزام المسلمين بدينهم، ومن ثم سعوا إلى تدمير الوحدة الدينية للشعوب المسلمة."[23]

لقد كانت مجلة العروة الوثقى ثورية المحتوى والنبرة. ورغم أن الأفغاني كان رئيساً لتنظيم العروة الوثقى ومسئولاً عن إصدار مجلته، فإنه لم يكن رئيساً لتحرير المجلة، إذ كان يتولى هذا المنصب تلميذ الأفغاني المقرب إليه آنذاك الشيخ محمد عبده. ومع ذلك فإننا لا

---

22 لمزيد من التفاصيل حول تنظيم العروة الوثقى انظر: محمد عمارة، مرجع سابق، ص 254-262.

23 انظر:

Busool, Assad Nimer. *Sheikh Muhammad Rashid Rida's Political Activities: A Struggle for the Revival of an Orthodox* (Salafi) *Islamic State*, unpublished Ph.D. dissertation, University of California, Berkeley, 1974, p 48.

نشك في أن الأفكار التي عبرت عنها المجلة كانت أفكار الأفغاني، بل وهذا ما أكده الشيخ محمد عبده نفسه.[24] وقد أدى الحظر الذي فرضه الاستعمار البريطاني على المجلة في مصر والهند إلى توقفها نـــهائياً.

ورغم جهود الأفغاني في محاربة الاستعمار إلا أن هذه الجهود قد قصرها على الاستعامر البريطاني دون غيره إذ لم تدن مجلة العروة الوثقى التي كان مقرها باريس الإستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا، إلاّ أنه ربما أراد استغلال الصراع الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا لصالح تحرير البلاد الإسلامية الخاضعة للاستعمار البريطاني. كما أنه قد اقترح مرة أن تتعاون روسيا وإيران وأفغانستان لتحرير الهند المسلمة من الاستعمار البريطاني مقابل تقسيمها بينهم.[25] ويبدو أن بريطانيا قد مثلت للأفغاني ما مثلته الولايات المتحدة بعد قرن من الزمان للإمام الخوميني: "الشيطان الأكبر".

و لم تكن الأهداف الإصلاحية الثلاثة للأفغاني دائماً متسقة مع بعضها بعضا. فعلى سبيل المثال، تطلّب السعي نحو توحيد الدول الإسلامية المستقلة أن يتعاون الأفغاني مع حكام تلك الدول، بينما تطلّب السعي نحو إصلاح النظم السياسية في الدول الإسلامية أن ينبه الأفغاني الجماهير المسلمة إلى فساد حكامها. وكذلك فإن السعي نحو تحرير البلاد الإسلامية المحتلة تطلّب أن يتعاون الأفغاني مع حكام الدول الإسلامية المستقلة وأن يُعَبِّأ الجماهير المسلمة ضد الاستعمار تحت راية الخلافة الإسلامية العثمانية. ولذلك كان على الأفغاني في كثير من الأحيان بعد توقف مجلة العروة الوثقى عن الصدور أن يفاضل بين أهدافه الثلاثة وأن يُعَدِّل وسائل تحقيقها. وغالباً ما اختار الأفغاني في هذه المرحلة من مشروعه الإصلاحي السياسي أن يتعاون مع الحكام المسلمين ليس فقط من أجل توحيد بلادهم والمساعدة عل تحرير البلاد المسلمة المستعمَرة بل وأيضاً من أجل إقامة دول إسلامية نموذجية في البلاد التي يحكمونـــها.

ومع ذلك فإن خبرة الأفغاني في التعامل مع حكام إيران والدولة العثمانية تشير إلى عدم جدوى هذا الأسلوب في تحقيق أيٍ من أهدافه الإصلاحية الثلاثة. فحين اختار

---

[24] الأفغاني، جمال الدين. مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 339-345.

[25] عمارة، محمد. مرجع سابق، ص 110-111.

الأفغاني إيران لتكون بؤرة مشروعه الإصلاحي السياسي وانتقل للإقامة فيها في الفترة من 1889 إلى 1891 لم يسع للإطاحة بالشاه ناصر الدين كما سعى من قبل في مصر للإطاحة بالخديوي إسماعيل، وإنما حاول إقناع الشاه الإيراني بمزايا إقامة نظام سياسي يرتكز على دستور إسلامي ومجلس نيابي منتخب شعبياً،[26] كما دعا الفرس والأفغان لإقامة وحدة بينهما.[27] إلا أن العلاقة بين الأفغاني والشاه وصلت إلى نـــهاية مأساوية، إذ خلص الأفغاني إلى أن الشاه يتلاعب به لتحقيق مصالحه الشخصية، وأنه مُرَحِّب بالنفوذ المتزايد للشركات البريطانية في بلاده. ولذلك تحول الأفغاني ضد الشاه، فقام الشاه بطرد الأفغاني من البلاد بطريقة مهينة للغاية ظل الأفغاني يتذكرها بألم وغضب ومرارة حتى وفاته.[28] وفي المقابل نجح الأفغاني في إقناع المرجع الشيعي الأعلى الملا الشيرازي بإصدار فتوى بتحريم التعامل مع شركة التبغ البريطانية ذات الامتيازات الخاصة في إيران.[29] وبالفعل أصدر الملا تلك الفتوى، وكانت استجابة الشعب الإيراني لها شبه إجماعية. وأخيراً فقد اغتيل الشاه ناصر الدين على يد رجل يُعتَقَد أنه من المتأثرين بالأفغاني.[30]

وقد أعاد الأفغاني النظر في اختيار الدولة التي يجب أن تكون بؤرة مشروعه الإصلاحي السياسي، إذ رأى أن الدولة العثمانية هي الأصلح لهذا الغرض. وكان تقدير الأفغاني للدولة العثمانية يرجع إلى عدة أسباب. فقد اعتبرها الأفغاني أقوى الدول الإسلامية المستقلة آنذاك وأكثرها ندية للدول الأوروبية، وبالتالي فهي الأقدر على حماية الإسلام وتوحيد بلاده ومواجهة الاستعمار في أراضيه.[31] كما أعلن الأفغاني ذات مرة مبايعته للسلطان عبد الحميد خليفة للمسلمين، وذلك على أمل أن يمارس السلطان نفوذه على

---

26 الأفغاني، جمال الدين. مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 283-285.

27 المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 265-271.

28 عمارة، محمد. مرجع سابق، ص 76-77.

29 انظر نص الرسالة التي وجهها جمال الدين الأفغاني إلى كبار علماء الشيعة حول إصدار هذه الفتوى في: جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 272-276.

30 عمارة، محمد. مرجع سابق، ص 28-29.

31 الأفغاني، جمال الدين. مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 16-19.

جميع المسلمين من أجل تحقيق الإصلاح المنشود.[32] وقد وصف الأفغاني السلطان ذات مرة بأنه حاكم ذكي وشجاع يسعى لإقامة جامعة تضم البلاد الإسلامية المستقلة.[33]

ولذلك انتهز الأفغاني دعوة السلطان له لمناقشة بعض القضايا السياسية في الآستانة فأجاب الدعوة وشجع السلطان على إصلاح الدولة العثمانية سياسياً[34] وتبني فكرة الجامعة الإسلامية كسياسة رسمية في علاقاتـــها الخارجية.[35] إلا أن السلطان انتهز بدوره زيارة الأفغاني للآستانة ففرض عليه الإقامة الجبرية في أحد القصور السلطانية مخافة إثارته للجماهير، ولم يسمح له بالسفر مرة أخرى. أما الأفغاني فقد أصابه الإحباط من خداع السلطان له وتلاعبه به وعدم رغبته في إقامة نظام سياسي دستوري قائم على الشورى وعدم جديته في إقامة جامعة إسلامية. ولذلك تحول الأفغاني ضد السلطان وانتقده بشدة وأعلن براءته من مبايعته خليفة للمسلمين لأنه لم يعد في نظر الأفغاني يستحق ذلك اللقب.[36]

قد تبدو المحصلة النهائية لحركة الأفغاني نحو الإصلاح السياسي غير مشجعة، إذ لم يتحقق في حياته أي من أهدافه الثلاثة: فلم تُبنَى دولة إسلامية نموذجية في مصر أو إيران أو الدولة العثمانية، ولم تتحرر أي من البلاد الإسلامية المستعمَرة من الحكم الأجنبي، ولم تنشأ جامعة إسلامية تضم الدول الإسلامية المستقلة. ورغم أننا لسنا في مجال تقويم تجربة الأفغاني في الإصلاح السياسي، إلا أننا نشير باختصار إلى النجاح الكبير الذي حققه الأفغاني في موضعين. فهو أولاً أيقظ قطاعاً كبيراً من الأمة الإسلامية فأصبحت واعية بحقوقها ومسئولياتـــها من جانب وفساد النظم السياسية القائمة آنذاك من جانب آخر. فنجاح الأفغاني بين الجماهير المسلمة كان أكبر من نجاحه بين حكام المسلمين. فبعد أربعين عاماً من طرد الأفغاني من مصر اندلعت فيها ثورة شعبية كبرى ضد الاستعمار البريطاني قادها أحد تلاميذ الأفغاني هو سعد زغلول. واعتبر الشيخ رشيد رضا بحق أن هذه الثورة

---

32 المرجع السابق، الجزء الأول، ص 44، 79.

33 المرجع السابق، الجزء الثاني، ص 21-22.

34 عمارة، محمد. مرجع سابق، ص 80.

35 الأفغاني، جمال الدين. مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 21.

36 عمارة، محمد. مرجع سابق، ص 82-83.

كانت من ثمار الأفكار التي بثها الأفغاني في مصر.[37] وثانياً طرح الأفغاني بدائل لتحقيق الإصلاح السياسي الإسلامي سواء في مجال إقامة نظم سياسية ترتكز على الدستور والشورى، أو في مجال تحرير البلاد الإسلامية من الاستعمار وتوحيدها تحت راية الجامعة الإسلامية. ومن ثم فقد استفاد من تجربته الرائدة من جاء بعده من المصلحين المسلمين. بل إن المشروع الإصلاحي السياسي الذي دعا إليه الشيخ رشيد رضا وجاهد في سبيل تحقيقه كان من ثمرات دعوة الأفغاني للإصلاح السياسي، وهو ما سننتقل إليه الآن.

ثانياً: الإصلاح السياسي عند رشيد رضا بين بناء دولة إسلامية نموذجية وإقامة جامعة إسلامية

لماذا يُنظَر للشيخ رشيد رضا على أنه تلميذ الإمام محمد عبده دون السيد جمال الدين الأفغاني؟ ثلاثة عوامل قد تساعد في تفسير ذلك. فأولاً لم يسبق لرشيد رضا أن التقى الأفغاني لقاءً شخصياً. وثانياً فإن رشيد رضا لم يعتبر نفسه تلميذاً للأفغاني بينما ردد كثيراً أنه الوريث الفكري لعبده. ففي كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده" كما في سيرته الذاتية اللذين دونـــهما قبل فترة قصيرة من وفاته أكد رشيد رضا أنه كان لعبده كالمريد الصوفي لشيخه، وذلك مع فرق واحد هو أن رضا كان يصر على فهم تعاليم عبده ويتبع منها ما يعتقد صوابه.[38] وثالثاً فإنه عادة ما يُنظَر إلى رشيد رضا على أنه داعية للإصلاح الديني والتربوي على نحو ما كان عليه الإمام محمد عبده، وليس داعية للإصلاح السياسي على نحو ما كان عليه السيد جمال الدين الأفغاني.

إلا أن كلاً من هذه العوامل يمكن الرد عليه بما يدحضه. فأولاً صحيحٌ أن رشيد رضا لم يلق الأفغاني شخصياً، ولكن ليس من الضروري أن يلق التلميذ معلمه شخصياً لكي يتأثر بأفكاره وتعاليمه. ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك في العصر الحديث هو علاقة الزعيم الشيوعي الروسي لينين بالمفكر الشيوعي الألماني كارل ماركس. فبينما لم يلتق لينين

---

37 رضا، محمد رشيد. الرحلة السورية الثانية: 3، في: يوسف ابيش (محقق)، رحلات الإمام محمد رشيد رضا (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، 1979)

38 انظر:

Busool, Assad Nimer. op. cit., pp. 82-83.

بماركس قط فإنه ما من شك في أن لينين كان زعيماً ماركسياً. ولا تقلل من ماركسية لينين إسهاماته الخاصة في الفكر والحركة الشيوعيتين. ومن جانب آخر، فرغم أن رضا لم يلق الأفغاني شخصياً، إلا أنه قد بعث إليه برسالة مثنياً على أفكاره وجهوده الإصلاحية وسائلاً إياه أن يقبله في طائفة مريديه. إلا أن الأفغاني لم يتمكن من الرد على تلك الرسالة، إذ كان آنذاك في سجنه الذهبي في الآستانة محروماً من استعمال القلم والحبر والورق مخافة إثارته للجماهير ضد حكامها.[39]

وثانياً، رغم أن رضا لم يعتبر نفسه تلميذاً مباشراً للأفغاني، فإن إعجابه بالأفغاني واضح جلي. فكثيراً ما امتدح رضا الأفغاني واصفاً إياه بحكيم الشرق وموقظه. كما أنه فضله ذات مرة ضمنياً على معلمه المباشر محمد عبده، حيث لقّب الأفغاني بالمعلم الأول ولقّب عبده بالمعلم الثاني. وربما أهم من ذلك وذاك هو ما صرَّح به رضا من أن خطته الأصلية كانت اللّحاق بالأفغاني واتباعه، وأنه لم يفكر في الهجرة إلى مصر لمصاحبة عبده إلا بعد فشل خطته الأصلية بوفاة الأفغاني. بل إنه صرَّح أيضاً بأن أحد دوافعه للّحاق بعبده كانت رغبته في الاستفادة من خبرة عبده مع الأفغاني.[40] فلو أن رشيد رضا التحق بالأفغاني، أو لو أن الأفغاني رد على رسالة رشيد رضا رداً إيجابياً، لكان من المحتمل أن تتغير حياته جذرياً وأن تتخذ مساراً غير الذي أخذته بالفعل، ولكانت حجتنا في هذه الورقة غير موضع شك أو جدل.

إذن كان رضا معجباً بالأفغاني، فهل كان عضواً في تنظيمه السري "العروة الوثقى"؟ في الواقع لا يوجد دليل على ذلك، ولكن ما تتعدد أدلته هو أن رضا كان متأثراً بأفكار الأفغاني كما عرضها في مجلته "العروة الوثقى". فرضا لم يكن فقط حريصاً على اقتناء المجلة وشغوفاً بقراءة جميع أعدادها، بل إنه نسخ كثيراً من مقالاتـــها وسعى لنشرها بين الناس في بلدته بالشام رغم الحظر الذي فرضته السلطات العثمانية على المجلة.[41] وقد أكد رضا

---

39 المراكشي، محمد صالح. **تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار 1898-1935** (تونس: الدار التونسية للنشر؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983) ص 36.

40 رضا، محمد رشيد. الرحلة السورية الثانية: تمهيد، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص 211

41 لمزيد من التفاصيل حول تأثر رشيد رضا بمجلة العروة الوثقى انظر: إبراهيم أحمد العدوي، **رشيد رضا: الإمام المجاهد** (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر والدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.) ص 60-86.

لاحقاً في مجلته "المنار" أن مجلة العروة الوثقى كانت تعمل فيه عمل السحر،[42] وأنها غيرت مجرى حياته.[43] كما أعاد رضا نشر كثير من مقالاتها في "المنار" تحت عنوان "المقالات الجمالية".[44]

وثالثاً فإن رضا كان مفكراً سياسياً من الدرجة الأولى ومحترفاً للعمل السياسي من أجل الإصلاح تماماً كما كان مصلحاً دينياً وتربوياً. فقد وضع رضا رسالة في إحياء الخلافة على أساس إسلامي أصيل يتناسب مع حالة العالم الإسلامي في العصر الحديث.[45] وقد تناولت الرسالة موضوعين أحدهما نظري والآخر عملي. فأما شقها النظري فقد اعتُبر أفضل ما كتب في النظرية الإسلامية للحكم من حيث التأصيل والتنظيم منذ الكتاب الذي وضعه الماوردي في "الحكام السلطانية" في القرن الرابع الهجري.[46] وأما الشق العملي فقد تناول المشكلات التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الأولى والتي أثرت في مصير الخلافة. وكسياسي محترف ساهم رضا في إنشاء عدة تنظيمات سياسية وقيادتها، كما دعا إلى إصلاح سياسي على أساس إسلامي في الدولة العثمانية والجزيرة العربية وسوريا وجاهد من أجل تحقيق ذلك الإصلاح. ويبدو أن عدم نجاح المشروع الإصلاحي السياسي لرشيد رضا ظاهرياً ساهم في التقليل من شأن أفكار رضا وجهوده من أجل الإصلاح السياسي.

1. موقف أستاذ رشيد رضا من الإصلاح السياسي

لم يكن رشيد رضا من الدعاة الأوائل لفكرة الجامعة الإسلامية، كما أنه لم يلتق بأول المتحمسين للدعوة إليها وهو الأفغاني. فقد وصلت فكرة الجامعة الإسلامية إلى رشيد رضا

---

42 السلمان، محمد عبد الله. **رشيد رضا ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب** (الكويت: مكتبة المعلا، 1988) ص 202-208.

43 الجندي، أنور. **تاريخ الصحافة الإسلامية**، الجزء الأول: المنار (القاهرة: دار الأنصار، 1983) ص 25-28.

44 المرجع السابق، ص 215؛ أحمد فهد بركات الشوابكة، **محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية** (عمان: دار عمار، 1989) ص 21.

45 رضا، محمد رشيد. **الخلافة** (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، 1994).

46 انظر:

Assad Nimer Busool, op. cit., pp. 6-7.

عن طريق مجلة العروة الوثقى وبعض المصلحين الذين تلقوا الفكرة من الأفغاني ومن بينهم عبد الرحمن الكواكبي. ولكن النهاية غير المشجعة لمشروع الأفغاني في الإصلاح السياسي ربما أحبطت تفكير رضا المبكر في ذلك الإصلاح. إلا أن أشد ما أثر في موقف رضا من العمل السياسي في بداية مشروعه الإصلاحي كان توجيه أستاذه محمد عبده له نحو الجهاد من أجل الإصلاح الديني والتربوي دون السياسي. وفي الواقع فإن آراء محمد عبده لم تكن تشجع على ممارسة العمل السياسي على الإطلاق، وهذا ما ميَّز حركته الإصلاحية عن حركة أستاذه الأفغاني.

ولعل أهم ما ميّز بين الحركتين هو تباين مواقفهما من الإصلاح الدستوري والتحرر من الاستعمار والوحدة الإسلامية. فعقب رحيل الأفغاني عن مصر وتولي عبده رئاسة تحرير صحيفة "الوقائع المصرية" الرسمية، كتب عبده فيها منتقداً الدعوة إلى الإصلاح الدستوري. إذ رأى عبده أن الشعب المصري - الذي كان قد اعتمد عليه الأفغاني سابقاً لإقامة دولة إسلامية نموذجية - لم يكن على درجة كافية من التعليم والنضج تسمح بإقامة نظام حكم دستوري.[47] ورغم أن عبده أعاد النظر في ذلك الرأي أثناء الثورة العرابية (1881-1882)، حيث رأى أن الشعب المصري قد أصبح مؤهلاً للحكم الدستوري ومن ثم تعاون عبده مع زعماء الثورة، إلا أن أفكاره لم تبلغ درجة ثورية أفكار القادة العسكريين والزعماء الشعبيين للثورة.[48] وعلى أية حال فإن عبده عاد إلى أفكاره القديمة المرغّبة عن الإصلاح السياسي بعد فشل الثورة العرابية والاحتلال البريطاني لمصر. إذ خلص إلى أن الشرق لا ينهض به إلا مستبد عادل،[49] وهي الفكرة التي انتقدها الأفغاني بشدة، إذ رأى أن القائد يجب أن يكون عادلاً وقوياً وليس مستبداً.[50]

وبالمثل فقد تخلى عبده عن أفكار أستاذه الأفغاني حول محاربة الاستعمار والدعوة إلى الوحدة الإسلامية، وذلك بعد أن سمحت له سلطات الاحتلال البريطاني بالعودة إلى مصر

---

47 عمارة، محمد. **الإمام محمد عبده: مجدد الدنيا بتجديد الدين** (بيروت: دار الشروق، 1988) ص 187-189.

48 عبده، محمد. **الأعمال الكاملة**، تقديم وتحقيق محمد عمارة (بيروت: دار الشروق، 1993) الجزء الأول، ص 55-57.

49 المرجع السابق، الجزء الأول، ص 845-846.

50 المرجع السابق، الجزء الأول، ص 87؛ جمال الدين الأفغاني، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص 329.

من منفاه في بيروت شريطة عدم قيامه بأي نشاط سياسي.[51] ولذلك لم يتعاون عبده قط مع الحركة الوطنية المصرية التي كانت تناضل في ذلك الوقت من أجل تحرير مصر من الاحتلال البريطاني. بل إن عبده اعتبر الزعيم الوطني مصطفى كامل مجرد محرض على إثارة الجماهير.[52] وقد بلغ رفض عبده تحدي سلطات الاحتلال البريطاني حد أنه رأى أن على المصريين الاهتمام بالإصلاح التربوي دون السياسي حتى لو أدى ذلك إلى انتظارهم قروناً قبل تحرير بلادهم من الاستعمار.[53] وبالطبع فقد كان هذا الموقف مبعث اطمئنان ورضا سلطات الاحتلال، حتى أنـــها قبلت تعيين عبده مفتياً للديار المصرية (1899-1905) وأيدته في صراعه مع مشايخ الأزهر ذوي الاتجاه المحافظ الذين اعتبرهم عبده أحد أخطر معوقات الإصلاح الديني والتربوي. وفي الواقع فإن موقف عبده المهادن للاستعمار لصالح تحقيق الإصلاح الديني والتربوي لم يكن متعلقاً فقط بمصر، بل كان موقفاً مبدئيا. إذ نصح عبده الشعبين التونسي والجزائري بالاهتمام بالإصلاح الديني والتربوي وعدم الانخراط في العمل السياسي أو الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي.[54]

أما عن موقف عبده من فكرة الجامعة الإسلامية، فلا يُعرَف عن عبده أنه طوَّر نظرية أو برنامجاً للوحدة الإسلامية على غرار ما فعل الأفغاني مثلاً، إلا أنه رأى أن المسلمين لم يعد لهم إمام إلا القرآن،[55] وهى فكرة قد تقترب قليلاً من اقتراح الأفغاني إقامة جامعة إسلامية على أساس التزام جميع الدول الإسلامية بالقيم والشريعة المستمدة من القرآن والسنة. كما لا يُعرَف عن عبده أنه عمل على إنجاز فكرة الجامعة الإسلامية بعد أن فارق أستاذه الأفغاني نتيجة انـــهيار تنظيم العروة الوثقى وتوقف مجلته عن الصدور.[56] وكذلك فإن رؤية عبده للدولة العثمانية تبدو مضطربة. فبينما كان يمتدحها ويمتدح سلطانـــها عبد الحميد حين يكون في أقاليمها، على نحو ما فعل حين كان منفياً في بيروت وحين زار

---

51 عبده، محمد. مرجع سابق، الجزء الأول، ص 32.

52 المرجع السابق، الجزء الأول ص 95.

53 عمارة، محمد. عبده، الإمام محمد. مرجع سابق، ص 207.

54 عبده، محمد. مرجع سابق، الجزء الأول، ص 91-92.

55 المرجع السابق، الجزء الأول، ص 865.

56 حول دور محمد عبده في تنظيم العروة الوثقى ومجلتها انظر: محمد عبده، مرجع سابق، الجزء الأول، ص 659-712.

الآستانة عام 1903،[57] فإنه ذكر لرشيد رضا في مصر أنه يمقت الدولة العثمانية وسلطانـــها الذي وصفه بالجبن والفشل.[58]

ولعل الاختلاف الكبير بين الآراء الإصلاحية لكل من الأفغاني وعبده يتضح أكثر بذكر الحادثة التالية. فبينما كان الأفغاني وعبده في باريس لقيادة تنظيم العروة الوثقى وإصدار مجلته اقترح عبده على الأفغاني اعتزال العمل السياسي وأن يرحلا إلى منطقة نائية لا تصل إليها يد الاستبداد أو الاستعمار، وذلك لتعليم مجموعة منتقاة من نابغة النشء المسلم وإعدادهم لقيادة بلادهم ومجتمعاتـــهم نحو الإصلاح. وقد رفض الأفغاني هذه الفكرة كلياً وقال لعبده "إنما أنت مُثبِّط."[59]

ورغم أن رشيد رضا التزم في بداية جهاده في مصر من أجل الإصلاح بآراء عبده غير المشجعة على العمل السياسي، إلا أن ذلك الالتزام لم يدم طويلاً ولم يستمر عقب وفاة عبده عام 1905. إذ سعى رضا إلى الجمع بين الآراء الإصلاحية لأستاذيه الأفغاني وعبده، وذلك بالعمل في سبيل الإصلاح الديني والتربوي والسياسي. ولعل أهم ما سعى رضا لتحقيقه من مشروع الأفغاني للإصلاح السياسي هو محاولة بناء دولة إسلامية نموذجية وإقامة جامعة إسلامية.

نحو دولة إسلامية نموذجية دولة عثمانية على أساس إسلامي دستوري

يعود انخراط رشيد رضا في العمل السياسي إلى ما قبل وفاة أستاذه محمد عبده، بل إلى ما قبل هجرته من سوريا إلى مصر. إذ كانت هذه الهجرة ذاتـــها حركة سياسية قصد بها رضا الخروج من قبضة الحكم العثماني التسلطي في سوريا واستغلال مناخ الحرية النسبي في مصر للتعبير عن أفكاره الإصلاحية.[60] إلا أن النشاط السياسي لم يكن من أولويات رضا في ذلك الوقت، إذ كان معنياً بإصلاح ذاته قبل إصلاح مجتمعه وبلده.[61] كما أن آراء

---

57 المرجع السابق، الجزء الأول، ص 873-875؛ محمد عمارة، الإمام محمد عبده ...، مرجع سابق، ص 116-124.

58 عبده، محمد. مرجع سابق، الجزء الأول، ص 863-864، 871.

59 المرجع السابق، الجزء الأول، ص 73.

60 السلمان، محمد عبد الله. مرجع سابق، ص 257-258.

61 انظر:

عبده غير المشجعة على الإصلاح السياسي أثرت في رؤية رضا الإصلاحية في فترة مبكرة من إقامته بمصر. فقد وافق عبده على أن يكون مرشداً للمجلة التي عزم رضا على تأسيسها شريطة ألا تلتزم بموقف سياسي أو تتعرض لقضايا سياسية.[62] ورغم أن رضا قد وافق على مضض على تلك الشروط،[63] إلا أنه لم يلتزم بها حرفياً. فقد تعرض لمناقشة بعض القضايا السياسية المتعلقة بالدولة العثمانية في الأعداد الأولى من "المنار". إذ دافع عن الدولة وانتقد أعداءها،[64] كما دعا إلى إصلاح إدارتـــها.[65] ولعل أبرز الأعمال السياسية التي نشرها رضا في "المنار" في سنواتـــها الأولى هو كتاب "أم القرى" الذي دعا فيه عبد الرحمن الكواكبي إلى إصلاح سياسي جذري في العالم الإسلامي، رغم أن رضا لم ينشر بعض فقرات الكتاب التي اعتبرها مسيئة للدولة العثمانية.[66]

وفي الواقع فإن تأسيس مجلة "المنار" في حد ذاته لدليل على تأثر رضا بأفكار الأفغاني الإصلاحية وحركته السياسية. فقد ذكر رضا أنه أنشأ "المنار" لكي تخلف "العروة الوثقى" وتنشر رسالتها، وخاصة فيما يتعلق بالجامعة الإسلامية.[67] فإلى أي حد نجحت "المنار" في هذا الشأن؟ وإلى أي حد كانت "المنار" تشبه "العروة الوثقى"؟ فبينما عبَّرت "العروة الوثقى" عن أفكار الأفغاني بكلمات عبده، عبَّرت "المنار" في سنواتـــها الأولى عن أفكار عبده بكلمات رضا. وكما كان من المحتمل أن يُغيِّر عبده من وجهة "العروة الوثقى" نحو التركيز على الإصلاح الديني والتربوي دون السياسي لو أنه واصل إصدار المجلة بعد فراق الأفغاني ولاسيما بعد عودته إلى مصر، فإن رشيد رضا قد غيَّر بالفعل من وجهة "المنار" بعد وفاة عبده لكي تصبح أكثر اهتماماً بالإصلاح السياسي. وقد كانت المجلتان سلفيتي النزعة، بمعنى أنـــهما حرصتا على تدعيم حججهما بأسانيد من القرآن والسنة.[68] كما

Assad Nimer Busool, op. cit., pp. 37-39.

62 المرجع السابق، ص 70؛ أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 313.

63 الشوابكة، أحمد. مرجع سابق، ص 158.

64 المراكشي، محمد صالح. مرجع سابق، ص 109-117.

65 الشوابكة، أحمد. مرجع سابق، ص 187-188.

66 المراكشي، محمد صالح. مرجع سابق، ص 115.

67 السلمان، محمد عبد الله. مرجع سابق، ص 272.

68 المرجع السابق، ص 296-308؛ محمد صالح المراكشي، مرجع سابق، ص 85-86.

كانت كلتاهما حرباً على التقليد الأعمى الذي كان متفشياً بين المسلمين، إذ دعتا إلى فتح باب الاجتهاد بل ومارستاه بالفعل في المسائل الفقهية التي تعرضتا إليها.

وبينما هاجمت "العروة الوثقى" قوة استعمارية بعينها هي بريطانيا، أدانت "المنار" الاحتلال الأجنبي لأقاليم مسلمة بعينها وهي الولايات العربية في الدولة العثمانية.[69] وكما كان مقر "العروة الوثقى" بعيداً عن أيدي أعدائها السياسيين وهم بريطانيا وبدرجة أقل حكام المسلمين، فإن مقر "المنار" كان بعيداً أيضاً عن أيدي أعدائها السياسيين وهم الحكومة العثمانية وبعض حكام العرب. وبينما حُظِرَت "العروة الوثقى" في البلاد الإسلامية الخاضعة للاحتلال البريطاني وفي الدولة العثمانية، فإن "المنار" حُظِرَت أيضاً في الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني.[70] ومع ذلك فقد تمتعت كل من المجلتين بنفوذ واسع وتأثير كبير في معظم البلاد الإسلامية، وأسست كل منهما مدرسة فكرية وحركة إصلاحية.[71]

2. إصلاح الحكومة المركزية العثمانية

عندما توفى الإمام محمد عبده كان رضا قد بلور بالفعل رؤية للإصلاح السياسي في الدولة العثمانية وإقامة دولة إسلامية نموذجية فيها. فقد دعا رضا مثلما دعا الأفغاني من قبل إلى إقامة نظام سياسي إسلامي دستوري يلتزم بمبادئ الشورى والعدل والحرية، يشارك فيه الشعب في الحياة السياسية، ويلتزم فيه السلطان باستشارة زعماء الشعب وممثليه وتخضع الحكومة لمساءلتهم.[72] وبعبارة أخرى، فإن رضا رأى أن النظام السياسي الفاسد في الدولة العثمانية هو الأولى بالإصلاح.

وقبل الانقلاب العثماني الأول عام 1908 تشابهت أساليب رضا في الدعوة إلى ذلك الإصلاح السياسي إلى حد كبير مع الأساليب التي اتبعها الأفغاني من قبل لتحقيق ذات الغاية. فقد فضَّل رضا استخدام وسائل الإعلام وقيادة أنشطة سرية لإنجاز هدفه. إذ

---

69 المراكشي، محمد صالح. مرجع سابق، ص 174.

70 رضا، محمد رشيد. الرحلة السورية: تمهيد، في: يوسف ايبش (محقق)، مرجع سابق، ص 212.

71 حول أثر المنار في مصر والهند واستانبول انظر: أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 157-179.

72 المرجع السابق، ص 188.

خصص رضا أولاً مساحة متزايدة من مجلته "المنار" لمناقشة قضايا الإصلاح السياسي في الدولة العثمانية. وعمل ثانياً مع غيره من الرعايا العثمانيين في مصر لإنشاء منظمة سرية هي جمعية الشورى العثمانية، التي ضمت ممثلين عن معظم الجماعات العرقية والدينية في الدولة العثمانية، وكانت نشطة في الدعوة إلى إصلاح الدولة العثمانية في مصر وبعض الولايات العثمانية وبعض الدول الغربية. وقد ترأس رشيد رضا هذه الجمعية عام1906.[73] وكانت الجمعية تشبه إلى حد كبير الحزب الوطني الحر الذي أنشأه الأفغاني في مصر قبل ترحيله منها، وذلك مع فرق بنيوي واحد هو أن مقر جمعية الشورى العثمانية كان في إقليم لا يخضع للحكم العثماني فعلياً.

وبينما فشل الحزب الوطني الحر في تحقيق الإصلاح السياسي الجذري الذي كان ينشده، والذي كان يشمل إقامة نظام جمهوري في مصر، تحقق جزئياً الهدف الإصلاحي الأكثر اعتدالاً الذي كانت تسعى إليه جمعية الشورى العثمانية حين أُجبر السلطان عبد الحميد الثاني عام 1908 على إعادة العمل بالدستور العثماني الذي كان قد عطله قبل ثلاثة عقود من الزمان. وفي الواقع فلم تكن جمعية الشورى العثمانية ذات التوجه الإسلامي هي التي قامت بالدور الرئيس في إجبار السلطان على ذلك، بل أجبرته لجنة الاتحاد والترقي ذات التوجه الغربي والأيديولوجية القومية التركية على إحداث ذلك التغيير، رغم تأكيد رشيد رضا أن جمعيته ساهمت في ذلك التغيير.[74] وفي البداية لم يُعِر رضا اهتماماً كبيراً لاختلاف التوجه بين جمعيته ولجنة الاتحاد والترقي، فرحب بالتغييرات السياسية التي فرضتها اللجنة.

وبتحقيق ذلك الهدف، أي إعادة العمل بالدستور، انحلت جمعية الشورى العثمانية وانضم كثير من أعضائها إلى لجنة الاتحاد والترقي. أما رضا فقد عدَّل بعض أساليبه في العمل على إقامة دولة إسلامية عثمانية نموذجية. فبينما استمر في استخدام مجلته كمنبر للدعوة إلى الإصلاح السياسي، قام رضا لأول مرة منذ وصوله مصر بزيارة وطنه سوريا

---

73 لمزيد من التفاصيل حول جمعية الشورى العثمانية انظر: المرجع السابق، ص 232-234؛ وانظر أيضا:

Busool, Assad Nimer. op. cit., pp. 87-90.

74 انظر:

Busool, Assad Nimer. op. cit., pp. 92-93.

حيث ألقى عدة خطب في منتديات سياسية وثقافية واجتماعية حاثّاً أهالي الشام على دعم الحكومة العثمانية الجديدة والمشاركة في الإصلاح السياسي.[75] وهنا يجب أن نشير إلى أن رشيد رضا كان خطيباً مُفَوَّهاً تماماً كما كان الأفغاني. كما شرع رضا في التعاون مع الحكومة العثمانية الجديدة لتحقيق ما ظنه هدفاً مشتركاً. وعلى خلاف الأفغاني الذي اضطُّر للتعاون مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ذي النزعة المحافظة، فقد تعاون رضا مع حكومة ظنها أكثر انفتاحاً للإصلاح الإسلامي رغم توجهها القومي. ولذلك زار رضا الآستانة وقضى فيها عاماً كاملاً (1909-1910) يناقش مشروعين إصلاحيين: الأول هو إنشاء "مدرسة الدعوة والإرشاد"، والثاني هو جسر الفجوة بين العرب والأتراك التي أحدثتها سياسة التتريك في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وخلال هذه الزيارة التقى رضا بكبار المسئولين في الحكومة العثمانية الجديدة ولجنة الاتحاد والترقي، ومن بينهم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وشيخ الإسلام (مفتي الديار) وبعض كبار الضباط.[76]

ومع ذلك فقد كانت الحكومة العثمانية الجديدة شديدة الالتزام بالمبادئ القومية التركية على نحوٍ أصم آذانـــها عن الاستماع إلى مقترحات رضا حول الإصلاح الإسلامي. فقد كانت سياساتـــها قائمة على إعلاء العنصر التركي والحط من شأن العناصر العثمانية الأخرى. فبدلاً من إصلاح ما أفسدته سياسة السلطان عبد الحميد الثاني، تمادت الحكومة الجديدة في سياسة تتريك الشعوب العثمانية غير التركية، بل واتخذت في هذا السبيل خطوات غير مسبوقة، مثل إعلان اللغة التركية لغة رسمية وحيدة في أرجاء السلطنة العثمانية كافة وفي مجالات الحياة العامة من تعليم وإعلام وقضاء وغير ذلك. كما سعت الحكومة الجديدة إلى تقوية روابط الدولة العثمانية بالشعوب التركية في وسط آسيا غير الخاضعة للسيادة العثمانية، وذلك من أجل إقامة جامعة طورانية تضم جميع الأتراك.[77] وفي المقابل فإن الحكومة الجديدة لم تـــهتم بمصالح الشعوب العثمانية غير التركية و لم تبالِ

---

75 لمزيد من التفاصيل حول هذه الرحلة انظر: محمد رشيد رضا، سياحة صاحب المنار في سوريا، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص 9-53.

76 لمزيد من التفاصيل حول هذه الرحلة انظر: محمد رشيد رضا، رحلة إلى استانبول، في: المرجع السابق، ص 55-57؛ وانظر أيضا:

Busool, Assad Nimer. op. cit., pp. 142-147.

77 انظر:

Busool, Assad Nimer. op. cit., pp. 142-147.

بالأخطار التي كانوا يتعرضون لها من الخارج. ولعل أوضح مثال على ذلك هو انسحاب الوحدات العسكرية العثمانية من ليبيا دون قتال يذكر فور غزو الطاليان لها عام 1911.[78]

3. نحو جامعة إسلامية: جامعة عثمانية إسلامية الأساس والوجهة

عارض رضا بشدة سياسات الحكومة العثمانية الجديدة التي تميز بين الرعايا العثمانيين، وهاجم بعنف لجنة الاتحاد والترقي التي تحكم البلاد، إذ رأى رضا أن تلك السياسات تهدد وحدة الدولة العثمانية المتعددة الأعراق.[79] وقد أدان رضا على وجه خاص السياسات المعادية للعرب واللغة العربية والتي زرعت العداوة والبغضاء بين أكبر شعبين عثمانيين وأهمهما، أي العرب والأتراك.[80] وكان على رضا أن يختار بين هدفين لحركته الإصلاحية السياسية في تلك المرحلة: الأول هو إقامة نظام سياسي إسلامي بإصلاح الحكومة العثمانية المركزية، والثاني هو حماية الدولة العثمانية من انهيار متوقع بإصلاح هيكل الدولة ذاته. وقد اختار رضا الهدف الثاني.

رأى رضا أن الصدع المتزايد بين العثمانيين لا يرأبه إلا إقامة جامعة عثمانية حقيقية. فبينما خضعت للدولة العثمانية جماعات عرقية ودينية مختلفة لا يجمعها سوى الرابطة العثمانية، فإن هذه الرابطة لم تكن تعني في الواقع أكثر من الخضوع لحكم سلاطين آل عثمان. أما رشيد رضا فقد رأى أن الدولة العثمانية يجب أن تصبح وطناً لجميع الشعوب المنضوية تحت لوائها بغض النظر عن أعراقها وأديانها، ومن ثم يصبح لدى رعاياها هوية وطنية عثمانية لا تتعلق بشخص حاكمها، وتتمتع جميع شعوبها بحقوق وواجبات متساوية. وهذا لا يمنع أن تظل الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية وأن يظل السلطان العثماني خليفةً لجميع المسلمين عثمانيين وغير عثمانيين.[81] كما لا يتعارض ذلك مع إقامة النظام السياسي العثماني على أساس المبادئ الإسلامية في الحكم.[82] وبعبارة أخرى، فإن فكرة

---

78 المراكشي، محمد صالح. مرجع سابق، ص 122-123.

79 انظر:

Busool, Assad Nimer. op. cit., pp. 149-154.

80 المرجع السابق، ص 163-164.

81 المرجع السابق، ص 142.

82 السلمان، محمد عبد الله. مرجع سابق، ص 493.

الجامعة العثمانية كانت تعني صبغ الهوية العثمانية بالصبغة الوطنية والمساواة بين جميع الشعوب العثمانية دون أن تصبح الدولة العثمانية دولة قومية تـــهتم فقط برعاياها أو علمانية لا تلتزم بالإسلام. ويبدو أن هذه الفكرة كانت حلاً وسطاً بين الأيديولوجية القومية التي ابتدعتها الأوروبيون والعلاقة الإسلامية الفريدة بين الأمة وقيادتـــها ممثلة في مؤسسة الخلافة.

ولكن لماذا كانت فكرة رشيد رضا عن الجامعة الإسلامية محدودة بالدولة العثمانية، وذلك على خلاف أستاذه الأفغاني؟ في الواقع فإن رضا سعى إلى جسر الفجوة بين المسلمين السنة والشيعة، وكذلك بين المدارس الفكرية والفقهية السنية المختلفة، وذلك بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وإعمال العقل لفهم الدين.[83] إلا أن الهدف الرئيس لفكرته عن الجامعة الإسلامية كان بالفعل هو إصلاح علاقة العرب والأتراك في إطار الدولة العثمانية.[84] وربما يعود ذلك إلى عدة أسباب. فأولاً كان رضا عثماني الوجهة سياسياً،[85] إذ كان يعتبر الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية، برغم انتقاده حكامها لعدم التزامهم بالمبادئ الإسلامية في الحكم.[86] وثانياً لم ينس رضا أبداً هويته الأصلية، وهي أنه سوري عربي عثماني. فرغم أنه قضى معظم حياته في مصر التي كانت قد خرجت بالفعل من أيدي العثمانيين، إلا أن انخراطه في الحياة السياسية العثمانية والعربية والسورية فاق بكثير انخراطه في الحياة السياسية المصرية.

وثالثاً فإن رضا كان أشد تأثراً بأستاذه عبده من أستاذه الأفغاني فيما يتعلق بالموقف من الاستعمار. فرغم مقته للاستعمار فقد كان متردداً في مهاجمته أو التدخل في الشئون السياسية للبلاد الإسلامية المستعمَرة في تلك الفترة، بما فيها مصر، في الوقت الذي كانت

---

83 حول آراء رشيد رضا وجهوده في هذا المجال انظر: محمد رشيد رضا، **الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية وتوحيد المذاهب** (بيروت ودمشق: المكتب الإسلامي، د.ت.)؛ وانظر أيضا: أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 48-66.

84 رضا، محمد رشيد. رحلة إلى القسطنطينية، في: يوسف إيبش (محقق)، مرجع سابق، ص 57-58؛ وانظر أيضا:

Busool, Assad Nimer. op. cit., pp191-121.

85 المرجع السابق، ص 72.

86 السلمان، محمد عبد الله. مرجع سابق، ص 495؛ محمد المراكشي، مرجع سابق، ص 187.

الدولة العثمانية واحدة من قليل من الدول الإسلامية التي حافظت على استقلالها.[87] ورابعاً فقد كان رشيد رضا واقعياً بحيث تحقق من أن ظروف العالم الإسلامي في عصره كانت أسوأ من ظروفه حين دعا الأفغاني إلى إقامة جامعة إسلامية تضم جميع الدول الإسلامية المستقلة. وتطبيقاً للقاعدة الأصولية "ما لا يدرك كله لا يترك جله" سعى رضا إلى الحفاظ على وحدة الدولة العثمانية. هذا ولا يوجد دليل على أن الجامعة العثمانية كانت آخر المطاف في مشروع رضا للوحدة الإسلامية. فربما لو أن هذه الجامعة كانت قد تحققت لجاهد رضا لإقامة جامعة إسلامية أكبر.

إصلاح بنية الدولة العثمانية

فقد رضا الأمل تماماً في إصلاح الحكومة المركزية العثمانية الفاسدة،[88] واتجه إلى الدعوة إلى والعمل على إقامة جامعة عثمانية على أساس لامركزية الحكومة والإدارة العثمانيتين. وكان هدف رضا المُلح هو تمكين الشعوب العثمانية غير التركية من الاعتماد على ذواتـــها واحترام ثقافاتـــها والدفاع عن أراضيها ضد خطر التدخل الأجنبي المتزايد. وربما ينظر البعض إلى اللامركزية على أنـــها دعوة لتمزيق الدولة العثمانية، إلا أن هذا غير صحيح في ضوء معطيات تلك الفترة. فاللامركزية كانت دعوة إلى توحيد الشعوب العثمانية ومنع تشطير الدولة نتيجة الأفكار والحركات القومية المختلفة التي كانت تنمو بين أبناء تلك الشعوب ولاسيما غير التركية منها التي عانت من سياسة التتريك فأصبحت ترى الدولة العثمانية تجسيداً للاحتلال التركي لبلادها.[89]

دعا رشيد رضا إلى اللامركزية في مجلته "المنار"، كما شارك في تأسيس حزب اللامركزية الإدارية العثماني في القاهرة، والذي كانت تقوده نخبة من المهاجرين السوريين في مصر. وقد انتُخب رضا رئيساً للجنة الحزب العليا. ورغم أن الحزب أطلق على دعوته "اللامركزية الإدارية"، فإنه كان يدعو حقيقةً إلى نوع من الفيدرالية الديمقراطية. فقد دعا

---

87 حول آراء رشيد رضا في الاستعمار الغربي انظر:
Shahin, Emad Eldin. *Through Muslim Eyes: M. Rashid Rida and the West* (Herndon, VA, USA: The International Institute of Islamic Thought, 1993) pp. 75-87.

88 انظر:
Busool, Assad Nimer. op. cit., p 160.

89 المرجع السابق، ص 149.

الحزب إلى قصر سلطات الحكومة العثمانية المركزية على الشئون الخارجية وشئون الدفاع والمواصلات، وتخويل الصلاحيات الأخرى إلى الحكومات المحلية في الولايات العثمانية كافة. كما أكد الحزب على أن الأمة هي مصدر السلطات، وبالتالي فإن الشعب يجب أن ينتخب ممثليه في الجمعية الوطنية المركزية والمجالس النيابية الإقليمية، وأن تلك المجالس المنتخبة يجب أن تُمَكَّن من مراقبة أعمال الحكومات المركزية والمحلية كلٌ بحسب نطاق اختصاصاته.[90]

ومرة أخرى فإن حزب اللامركزية الإدارية العثماني الذي ساهم في تأسيسه رضا نجح ظاهرياً في تحقيق جانب من الإصلاح السياسي الذي فشل في تحقيقه تنظيم العروة الوثقى الذي أسسه الأفغاني. ونتيجة لعدم مبالاة الحكومة العثمانية بدعوات العرب العثمانيين إلى الإصلاح السياسي، شارك الحزب في تنظيم ورعاية المؤتمر العربي الأول الذي عُقد في باريس عام 1913 ورعايته. وعرض المؤتمر بجلاء لمطالب العرب العثمانيين وخاصة اللامركزية الإدارية، كما أظهر المؤتمر قوة الحزب وحسن تنظيمه والدعم الذي يتمتع به بين العرب العثمانيين.[91] ونجح الحزب في دفع الحكومة العثمانية للتفاوض مع ممثلين عنه وعن رئاسة المؤتمر، حيث وعدت الحكومة بالقيام بإصلاحات سياسية وإدارية واسعة النطاق، وأصدرت بذلك منشوراً باسم السلطان، كما عرضت مناصب رسمية في الحكومة المركزية على بعض من تفاوضت معهم.[92] إلا أن ذلك النجاح لم يكن إلا سراباً، فقد ماطلت الحكومة وسَوَّفت، ولم تُنجز شيئاً يذكر من وعودها، بل تمادت في سياساتها القومية والعنصرية.[93]

---

90 لمزيد من التفاصيل حول بنية الحزب وبرنامجه انظر: المرجع السابق، ص 155-163؛ أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 234-237.

91 لمزيد من التفاصيل حول المؤتمر وقراراته انظر: أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 244-247؛ وانظر أيضا:

Busool, Assad Nimer. op. cit., pp. 165-167.

92 الشوابكة، أحمد. مرجع سابق، ص 247-251؛ وانظر أيضا: المرجع السابق، ص 167-170.

93 انظر:

Busool, Assad Nimer. op. cit., p 174.

جامعة عربية في إطار الدولة العثمانية

خَلُص رضا إلى أن سياسات حزب الاتحاد والترقي الحاكم ستقضي على الدولة العثمانية وستُعرِّض الولايات العربية لخطر التدخل الأجنبي. لذلك أسس رضا جمعية سرية إسلامية التوجه ضمت معظم أمراء الجزيرة العربية وأطلق عليها جمعية الجامعة العربية. وكان هدف رضا الرئيس من هذه الجمعية هو حث الأمراء العرب على إقامة تحالف عسكري فيما بينهم للدفاع عن جزيرتـــهم العربية.[94] ويثور هنا سؤالان: الأول هو إلى أي مدى كانت جمعية الجامعة العربية التي أنشأها رضا تشبه تنظيم العروة الوثقى الذي أنشأه الأفغاني؟ فكل منهما كان منظمة سرية معادية للاستعمار. ولكن بينما كان تنظيم العروة الوثقى يحارب الاستعمار البريطاني الموجود بالفعل في مصر والهند، فإن إنشاء جمعية الجامعة العربية كان خطوة استباقية تـــهدف إلى إقامة تحالف دفاعي يمنع القوى الأجنبية من استعمار الجزيرة العربية. وبينما ضم تنظيم العروة الوثقى أُناساً من عامة المسلمين، كانت عضوية جمعية الجامعة العربية تقتصر في البداية على أمراء العرب.

أما التساؤل الثاني والأكثر أهمية فهو لماذا قَبِل رضا فكرة الجامعة العربية بينما رفض فكرة الجامعة الطورانية التركية؟ في الواقع فإن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في الاختلافات الجوهرية بين فكرة رضا عن الجامعة العربية وسياسة الحكومة العثمانية المتعلقة بالجامعة الطورانية التركية. فبينما أدت دعوة الجامعة الطورانية إلى تعريض الأقاليم غير التركية في الدولة العثمانية للاحتلال الأجنبي الفعلي أو الوشيك، فإن دعوة الجامعة العربية هدفت إلى حماية الأقاليم العربية العثمانية من خطر هذا الاحتلال. وبينما هدفت الجامعة الطورانية إلى جمع الأتراك العثمانيين وغير العثمانيين في رابطة واحدة، فإن رضا كان حريصاً على ألا ينضم إلى الجامعة العربية إلا عربٌ عثمانيون. وبينما كانت الجامعة الطورانية دعوة إلى تتريك الشعوب العثمانية غير التركية والعدوان على ثقافاتـــها، فإن الجامعة العربية كانت دعوة لبث الحمية في العرب للدفاع عن أنفسهم. وأخيراً بينما كانت الجامعة الطورانية قومية الأساس والوجهة، فإن الجامعة العربية كانت قومية الأساس إسلامية الوجهة. وبالجملة فإن فكرة الجامعة العربية كانت تصب في فكرة الجامعة العثمانية

---

[94] لمزيد من التفاصيل حول جمعية الجامعة العربية انظر: المرجع السابق، ص 140-142؛ أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 251-261.

الأكبر. لقد كان رضا مخلصاً لهويته العثمانية، ولم يعمل قط على تمزيق الدولة التي كان يعتبرها دولة الخلافة الإسلامية.

وقد أقنعت سياسات الحكومة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى رضا بأهمية الجامعة العربية. فقد مثّلت الحرب زخماً جديداً للقمع الحكومي في الولايات العربية، خاصة لأنـــها خشيت من اندلاع ثورة عربية تتعاون مع قوات الحلفاء ضد الحكم العثماني. وكان من بين ضحايا ذلك القمع عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر العربي الأول وغيره من الزعماء العرب الذين أعدمهم الوالي العثماني في سوريا.[95] وكان رضا في ذلك الوقت معنياً بمصير الولايات العربية العثمانية بعد الحرب، ولاسيما ولاية الحجاز التي تضم مكة المكرمة والمدينة المنورة. فقد رأى رضا أن انتصار الحلفاء قد يؤدي إلى احتلالهم الولايات العربية باعتبارها جزءاً من الأملاك العثمانية. أما انتصار دول الوسط فقد يؤدي إما إلى خضوع تلك الولايات لألمانيا أو ممارسة حكومة الاتحاد والترقي مزيداً من القمع ضد العرب.[96] ومن الواضح أن جميع تلك الاحتمالات لم تكن في صالح العرب.

ولذلك رأي رضا في الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين والي مكة ضد الحكومة العثمانية عام 1916 نجاة للحجاز من الاحتلال والقمع، لأنـــها أخرجت الولاية من سلطة الحكومة العثمانية. فأيد رضا هذه الثورة، وحج في ذلك العام إلى مكة حيث التقى بالشريف حسين وألقى خطبة بمنى دعا فيها المسلمين ولاسيما العرب منهم إلى دعم الثورة وقائدها.[97] إلا أن رضا لم يبايع الشريف حسين خليفة للمسلمين، كما لم يشجع غيره على ذلك، برغم تحريض البعض له للقيام بهذه الخطوة ليتبعه المسلمون فيها. فالثورة العربية كانت بالنسبة لرضا رداً مشروعاً على قمع حكومة الاتحاد والترقي للعرب، ولم تكن أبداً تحدياً لشرعية الخلافة العثمانية. ولذلك كان يرى أن هدف الثورة يجب أن يظل هو حماية الحجاز من التدخل الأجنبي والقمع العثماني.[98]

---

95 رضا، محمد رشيد. الرحلة السورية الثانية: تمهيد، في: يوسف ايبش (محقق)، مرجع سابق، ص 216-217.

96 السلمان، محمد عبد الله. مرجع سابق، ص 500.

97 انظر النص الكامل لهذه الخطبة وموقف رضا من الثورة العربية في: سمير أبو حمدان، **الشيخ محمد رشيد رضا والخطاب الإسلامي المعتدل** (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، 1992) ص 147-161.

98 المراكشي، محمد صالح. مرجع سابق، ص 157.

ولكن الثورة العربية لم تحقق ما كان يصبو إليه الشيخ رشيد رضا من ورائها، وذلك لعدة أسباب. فأولاً لم تكتف الثورة العربية بحماية الحجاز من القمع العثماني بل تحولت إلى معول هدم للدولة العثمانية، رغم أنـــها لم تكن معول الهدم الرئيس فيها. إذ لم يكتف الجيش العربي بهزيمة الوحدات العسكرية العثمانية في الحجاز وطردها منه، بل انحاز إلى قوات الحلفاء وقاتل الجيش العثماني في سوريا. وثانياً فإن الثورة العربية لم تمنع التدخل الأجنبي في البلاد العربية بما فيها الحجاز، إذ أصبحت المملكة العربية التي أعلنتها الثورة في حكم الحمية البريطانية بموجب المعاهدة البريطانية - الحجازية.[99] وثالثاً فإن الشريف حسين سارع بإعلان نفسه خليفة للمسلمين فور إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا. وكان رضا يرى أن قضية الخلافة هي قضية كل المسلمين، فيجب ألا ينفرد حاكم مسلم واحد بتحديد مصيرها، كما أن دولة الخلافة الإسلامية يجب أن تكون مستقلة تماماً عن جميع القوى الأجنبية.[100] ولذلك شجع رضا فكرة عقد مؤتمر يحضره ممثلون عن جميع البلاد الإسلامية لمناقشة قضية الخلافة، وشارك بالفعل في الإعداد لمؤتمر الخلافة الذي عُقد في القاهرة عام 1926، إلا أنه لم يحضر جلسات المؤتمر حين علم أن القائمين عليه وبعض المشاركين فيه انحرفوا به عن أهدافه لخدمة أهداف بعض الحكام المسلمين.[101]

نحو خلافة إسلامية راشدة

بعد نـــهاية الحرب العالمية الأولى انشغل رشيد رضا عن دعوته لإقامة جامعة إسلامية بجهاده من أجل إقامة دولة إسلامية نموذجية في وطنه سوريا التي حررها الجيش العربي من استبداد حكومة الاتحاد والترقي العثمانية. وقد تبوأ رضا في سوريا العديد من المناصب التي مكنته من تحقيق بعض أهدافه الإصلاحية. فقد انتُخب رضا رئيساً للمؤتمر السوري العام، ونجح مع زملائه الإصلاحيين في إقامة نظام ملكي دستوري يقترب من تصوره لما ينبغي أن يكون عليه النظام السياسي الإسلامي الحديث. إلا أن جهوده الإصلاحية في سوريا

---

99 حول المعاهدة البريطانية - الحجازية انظر:
Busool, Assad Nimer. op. cit., pp. 196-218.

100 لمزيد من التفاصيل حول موقف رضا المعارض لخلافة الشريف حسين انظر: المرجع السابق، ص 236-259.

101 لمزيد من التفاصيل حول جهود رضا في الإعداد للمؤتمر وموقفه منه بعد افتتاحه انظر: أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 337-343.

سرعان ما انـــهارت بسقوط الحكومة الدستورية على يد الاحتلال الفرنسي الذي كان دافعاً لرضا للمشاركة مع المجاهدين ضد الاستعمار وذلك بالكلمة في مجلة المنار وبالفعل حيث سافر إلى أوروبا لرفع قضية وطنه لعصبة الأمم.[102]

ولكن في أعقاب قرار الجمعية الوطنية التركية بفصل الخلافة الإسلامية عن الحكومة التركية وسحب جميع السلطات والصلاحيات السياسية من الخليفة العثماني، عاد رضا لمناقشة قضية الخلافة والجامعة الإسلامية، فكتب عام 1922 رسالته عن الخلافة الإسلامية. ورغم أنه أدان القرار التركي واعتبره باطلاً لأن الخليفة يجب أن يتمتع بالسلطات والصلاحيات التي تمكنه من أداء مهام منصبه، فإنه أهدى هذه الرسالة إلى الشعب التركي الذي اعتبره أقدر الشعوب الإسلامية على إحياء الخلافة والحضارة الإسلاميتين.

دعا رضا في الجزء الأول النظري من رسالة الخلافة إلى إعادة تأسيس الخلافة الإسلامية على أساس إسلامي أصيل واجتهاد عصري لفهم القرآن والسنة.[103] فالخلافة المنشودة يجب أن تكون راشدة وأن تقوم على الشورى والدستور، ويجب ألا تشبه الخلافة العثمانية التي وصفها رضا بأنـــها كانت "خلافة ضرورة" لم تكتسب مشروعيتها رغم مخالفتها المبادئ الأساسية للخلافة إلا لضرورة وجود خلافة إسلامية. ودعا رضا علماء المسلمين وقادتـــهم السياسيين إلى ترشيح عدد من الأفراد لمنصب الخلافة، ثم يلتحق هؤلاء بمدرسة تُنشأ خصيصاً لتعليم مبادئ الخلافة والتدريب على القيام بمهامها. وبعد اجتيازهم تلك المرحلة يُرشَّح هؤلاء الأفراد واحداً من بينهم لمنصب الخلافة، فإذا ما صادق علماء الأمة وقادتـــها على ذلك ترشيح يُعرَض على عامة المسلمين، فإذا ما وافقوا أصبح المرشح خليفة للمسلمين. وبذلك يصبح الخليفة مستوفياً لشروط الخلافة ومؤهلاً للقيام بأعبائها ومقبولاً من الناس. إلا أن رضا يرى أن الخلافة مؤسسة وليست منصباً، ولذلك اقترح

---

[102] لمزيد من التفاصيل حول جهود رضا للإصلاح السياسي في سوريا في تلك الفترة انظر: محمد رشيد رضا، الرحلة السورية الثانية، في:يوسف ايبش (محقق)، مرجع سابق، ص 211-310؛ أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 279-300.

[103] رضا، محمد رشيد. الخلافة، مرجع سابق، ص 77.

إنشاء عدة أجهزة سياسية تعاون الخليفة على الحكم على النهج الإسلامي الصحيح. وتشبه بنية مؤسسة الخلافة عند رضا إلى حد كبير بنية النظام الجمهوري الديمقراطي الحديث.[104]

أما في الجزء الثاني التطبيقي من الكتاب، فقد اقترح رضا حلولاً لتذليل العقبتين اللتين رأى أنهما تحولان دون تطبيق نموذجه للخلافة الراشدة، وهما العداوة والبغضاء بين العرب والأتراك من جانب، وعمليات التغريب المتزايدة في العالم الإسلامي من جانب آخر. وحيث لم يكن لدى رضا أمل في أن تقوم الحكومة التركية الوطنية التي يقودها كمال أتاتورك بدعم اقتراحه حول الخلافة الراشدة، كما لم يكن لديه أمل في أن يقوم الأمراء العرب المتعادين أو الزعماء العرب الخاضعين للغرب بتطبيق ذلك الاقتراح، دعا رضا إلى مخرج مبتكر لإقامة خلافة إسلامية راشدة. إذ اقترح إقامة تلك الخلافة في منطقة وسطى بين بلاد العرب وبلاد الترك، وحدد لذلك مدينة الموصل في شمال العراق، ثم تنضم البلاد الإسلامية إلى تلك الخلافة تباعاً إذا اقتنع قادتها بأهمية الخلافة الإسلامية وصلاح نظامها السياسي.[105] ولا شك أن هذا الاقتراح كان مثالياً بل خيالياً لم تسمح بتحقيقه ظروف العالم الإسلامي في ذلك الوقت أو في وقت لاحق.

وكان رضا متفائلاً فيما يتعلق بموقف الغرب من نموذج الخلافة الذي اقترحه، فظن أن الغرب لن يبال بها أو يعمل على عرقلة إقامتها. وقد دعا رضا الغرب إلى عدم الخوف من إقامة خلافة إسلامية راشدة لأن تلك الخلافة لن تتحول إلى جامعة إسلامية تُعبِّئ المسلمين في كل أرجاء العالم ضد الغرب.[106] إلا أن ما كان يخشاه على تلك الخلافة هو سيطرة الأحزاب السياسية المتغربة في العالم الإسلامي، وخاصة القوميين في تركيا.[107] وقد صدق حدس رضا، إذ كانت تلك الأحزاب أشد المعارضين لإعادة تأسيس الخلافة الإسلامية بأي شكل كان، حتى أن الجمعية الوطنية التركية قررت عام 1924 إلغاء الخلافة الإسلامية تماماً.

---

104 المرجع السابق، ص 86-89.

105 المرجع السابق، ص 77-86.

106 المرجع السابق، ص 124-129.

107 المرجع السابق، ص 117-123.

خاتمة

قد يكون من المفارقات أن مصير جهود رشيد من أجل الإصلاح السياسي كان يشبه مصير جهود الأفغاني من أجل تحقيق الغاية نفسها. فلم تقم دولة إسلامية نموذجية في الدولة العثمانية و لم تتأسس جامعة إسلامية عثمانية. إلا أن ما يبدو أنه فشلاً في الحالتين يجب ألا يمنعنا من تقدير تلك الجهود الإصلاحية. وكما ذكرنا جانباً من الآثار الطيبة لجهود الأفغاني الإصلاحية بين الجماهير المسلمة، نشير هنا إلى جانب من نجاح جهود الشيخ رشيد رضا في الإصلاح السياسي بين الجماهير المسلمة أيضاً. فقد أثّرت أفكار رضا وجهوده الإصلاحية في الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وأول مرشد عام لها، بل أثّرت أيضاً في البرنامج السياسي للجماعة. وليس أدل على هذا التأثير من أن الشيخ البنا كان حريصاً على نشر أفكار الشيخ رضا بعد رحيله، فواصل حتى حين إصدار مجلة المنار بعد وفاة مؤسسها ومحررها الشيخ رشيد رضا.[108]

---

[108] لمزيد من التفاصيل حول علاقة الشيخ البنا بالشيخ رضا انظر: أحمد الشوابكة، مرجع سابق، ص 160-164؛ وانظر أيضا:

Shahin, Emad Eldin. op. cit., p 13.

ولمزيد من التفاصيل حول رؤية الشيخ البنا لتأثير الشيخ رضا في جماعة الإخوان المسلمين انظر: حسن البنا، في الميدان من جديد، المنار، المجلد 35، العدد 5، يوليو 1939، ص 3-7.